

نيابة بيت المقدس

الدكتور يوسف درويش غوانة

تأسيس النيابة :

تمكنت دولة المماليك الناشئة في مصر من بسط نفوذها على بلاد الشام ، بعد انهيار المناوئة الايوبية .
وتصديهم للتتار وتدمير قواتهم في معركة عين جالوت سنة 659 هـ (1260 م) . فورث المماليك والحالة
هذه املاك اسيادهم الايوبيين ، وتشكلت في بلاد الشام ست نيابات ، قامت على انقاض الممالك الايوبية
التي كانت قائمة فيها . ولم تتكون هذه النيابات دفعة واحدة بل جاءت على فترات تبعا للظروف التي
كانت توجب اقامتها . وهذه النيابات هي : نيابة دمشق ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حماه ، ونيابة الكرك ،
و نيابة صفد (1) .

ولكن الناصر محمد بن قلاوون اقام نيابتين جديدتين الأولى في غزة (2) ، والثانية في بيت المقدس .
وولى في نيابة بيت المقدس الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاوي (ت 745) ، و اضاف اليه

(1) اللطشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ط مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة ، ج 4 ص 91 ،
180 . الخالدي : كتاب المنصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا ، مخطوط ، مكتبة جامعة القاهرة ، لوحة 7 .

(2) فأبو المحاسن يقول : (حتى ان مدينة غزة هو الذي مصرها وجعلها على هذه الهيئة وكانت قبل كأحد قرى
البلاد الشامية ، وجعل لها نائباً وسمي بملك الامراء ، ولم تكن قبل ذلك الا ضيعة من ضياع الرملة) . (النجوم
الزاهرة ، ج 9 ص 193 ، ويذكر ابو المحاسن ان نائبها سنة 699 هـ كان الأمير ركن الدين الجبالي (النجوم الزاهرة ،
ج 8 ص 190) .

وظيفة (ناظر الحرمين الشريفين) (3) . وكانت نيابة بيت المندس تابعة لنيابة دمشق . والتولية في معظم وظائفها من نائب دمشق (4) ، وبنيت على هذه الحال حتى أصبحت نيابة مستقلة كغيرها من نيابات بلاد الشام . وقد تضاربت الآراء حول تحديد التاريخ الذي أصبحت فيه نيابة مستقلة ، ثم ما هي الاسباب التي دعت السلاطين المماليك الى جعلها كذلك ؟ .

فالنصوص التي لدينا متضاربة ، فمجير الدين الحنبلي ذكر في كتابه الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل أن الناصر محمد بن قلاوون ولى الأمير علم الدين سنجر الحاولي (نظر الحرمين الشريفين والنيابة بالقدس الشريف وبلد الخليل عليه السلام (5) بحدود سنة 713 هـ (1313 م) (6) . وذكر أيضا أن الأمير قراز المؤيدي كان يتولى هذا المنصب في سنة 777 هـ (1375 م) (7) . وفي سنة 782 هـ (1380 م) تولاها الأمير بدر الدين حسن بن عماد الدين العسكري ، اما الأمير ناصر الدين محمد بن بهادر فكان متوليا لنيابة بيت المندس في سنة 789 هـ (1387 م) . وذكر أيضا أن الأمير شرف الدين موسى بن بدر الدين حسن تولى النيابة في سنة 793 هـ (1390 م) ثم شغل هذا المنصب في سنة 795 هـ (1392 م) الأمير بلوى الظاهري . وفي السنة التالية 796 هـ (1393 م) تولاها الأمير جانتمر الركني الظاهري ، وفي رجب من نفس السنة تولى النيابة بأمر من السلطان برقوق الأمير شهاب الدين أحمد اليعموري (8) .

أما الخالدي فذكر في كتابه المنصد الرفيع المنشأ أن نيابة دمشق فيها ست نيابات هي : نيابة القدس ، ونيابة صرخد ، ونيابة بعليك ، ونيابة حمص ، ونيابة عجلون ، ونيابة مصياف ، ولكن نيابة القدس أصبحت طبلخاناه في سنة 767 هـ (1365 م) ، وفيها بعد صار متوليتها من الابواب الشريفة في القاهرة ، ويضاف اليه الرملة ونابلس (9) .

ويذكر الملشندي في صبح الأعشى أن النيابة في بيت المندس استحدثت في سنة 777 هـ (1375 م) ونيابتها إمرة طبلخاناه ، وجرت العادة ان يضاف اليها نظر القدس والخليل (10) .

مجموع مسير الدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط مكتبة المحاسب ، عمان ، 1973 ، ج 2 ص 272 .

(4) الملشندي ، صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 .

(5) مجير الدين الحنبلي ، الانس الجليل ، ج 2 ص 272 .

(6) ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج 1 لوحة 98 .

(7) مجير الدين الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 2 ص 272 . وانظر : ابو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج 15 ص 388 .

(8) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 272 .

(9) الخالدي ، المنصد الرفيع المنشأ ، لوحة 147 (مخطوط) .

(10) الملشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 .

امير طبلخاناه : هو الأمير الذي يكون بخدمته اربعون مملوكا ، وتندق بابه بعد صلاة المغرب كل يوم ثلاثة احوال طبلخاناه ونفيران وتوقد المشاعل . والطبلخاناه تعني الفرقة الموسيقية السلطانية وهي مرتبة حربية من مراتب ارباب السيوف في الدولة المملوكية . ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص 113 .

ولكن المبريزي يذكر في احدث سنة 796 هـ (1393 م) ، ان السلطان برقوق انعم على (قردم الحسيني بناية القدس) (11) بينما كان في غزة في طريقه لمحاربة التتار بقيادة تيمورلنك الذي اخذ يضغط على الحدود الشرقية للدولة المملوكية (12) .

ومن المعروف ان الممالك ورثوا عن اسيادهم الايوبيين مهمة الجهاد ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وخاض سلاطينهم معارك طاحنة ضدهم ، حتى تمكن السلطان الأشرف خليل من فتح عكا آخر المعاقل الصليبية في فلسطين (13) وبذلك تم تطهير بلاد الشام من الفرنج نهائيا سنة 690 هـ (1291 م) . ولكن الصليبيين لم يأسوا ، بل أخذوا يقومون بأعمال عدوانية ضد الممالك من قبرص حيناً ، ومن الدويلات الاوروبية احيانا اخرى ، ثم زادت اتصالاتهم بالتتار ، وصاروا يعملون على اقامة حلف معهم كي تبني حدود دولة الممالك الشرقية في خطر مستمر (14) ، ولتمكين الصليبيين من استعادة الأراضي التي في بلاد الشام وعلى رأسها بيت المقدس ، وفعلوا اقيم تحالف بين التتار والغرب الاوربي ومملكة ارمينية الصغرى والروى الصليبية في بلاد الشام لهذه الغاية (15) .

اذن فكرة السيطرة على بيت المقدس ظلت أملاً يراود الفرنج طيلة العصر المملوكي فبعد سقوط عكا قاموا بحصار اقتصادي ضد الممالك ، كما شنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر والشام لتحنيق هذه الغاية (16) واعنف هذه الغزوات تلك التي شنّها بطرس لوزينان سنة 767 هـ (1365 م) على مدينة الاسكندرية ، فاجتاحت قواته المدينة ثلاثة ايام ، وقتلت ودمرت وأسرت الكثير من اهالي المدينة ، وبعد ان تم لهم ما ارادوا غادروا الاسكندرية الى بلادهم (17) . وفي سنة 769 هـ (1367 م) قام الفرنج بحملة ضد طرابلس الشام ، فدخلوا المدينة ونهبوا بعض الاسواق وحملوا معهم بعض الاسرى وقتلوا

(11) المبريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .

(12) المبريزي : نفس المصدر ، ص 813 .

(13) المبريزي : السلوك ، ج 1 ق 3 ص 764 وما بعدها . **Atiya, The Crusade in the Later Middle ages**
New York, 1970 P. 30

يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة الممالك الاولى ، القسم السياسي ، ص 134 .

(14) المبريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .

سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ، سلسلة اعلام العرب ص 75 ، 89 ، 95 .

(15) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص 96 .

(16) المبريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .

أبو الحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 12 ص 52 .

(17) النويري الاسكندراني : كتاب الامام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والأمر المفضية في رقة الاسكندرية ،

تحقيق عزيز سوربال عطية ، الهند ، 1970 م ج 2 ص 113

المبريزي : السلوك ، ج 3 ق 1 ص 109 .

آخرين من سكان المدينة (18) . وهكذا دخلت الدولة المملوكية حربا بحرية مع الفرنج ناهيك عن الحصار الاقتصادي الذي ايده البابا وباركه .

ونتيجة لغزوة بطرس لوزنجان على الاسكندرية ، استلزم الأمر ان يتولى الاسكندرية امير كبير . كي يتمكن من الوقوف في وجه الاخطار الصليبية فولى السلطان الأشرف شعبان الأمير بكتمر الشريفي نيابة الاسكندرية (وهو ول نائب ولي نيابة الاسكندرية من النواب) (19) .

لند اظهر الممالك تفهما كبيرا للخطرين الصليبي والتتاري . واستعدوا لذلك فالظاهر بيبرس اقام خطا دفاعيا قويا على الحدود الشرقية لدولته وشحنه بالرجال والعتاد ، واحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالناهرة . كما اقام خطا دفاعيا آخر يمتد من الشويك ، والكرك جنوبا الى اعالي العاصي شمالا ، كي ينف في وجه الخطرين التتاري والصليبي معا (20) . فالصليبيون هددوا السواحل المصرية والشامية ، واجتاحوا مدنه وعطلوا حركة التجارة والاتصالات البحرية المملوكية . أما التتار فكانوا يعبرون الفرات في طريقهم الى بلاد الشام والديار المصرية ، ولكن سرعان ما تنصدى لهم الدوات المملوكية فيعودون النهدي الى بلادهم ، وان كانوا قد وصلوا الى غزة واجتاحوا دمشق بقيادة محمود غازان سنة 699 هـ (1299 م) (21) . ثم اجتاحتها مرة اخرى سنة 803 هـ (1400 م) بقيادة تيمورلنك ، وسفكوا دماء الكثير من سكانها وسكان المدن الفلسطينية الأخرى . ولكنهم لم يدخلوا بيت المندس فسلم من عيبتهم وتدميرهم .

ان الهدف الحيني من وراء الهجمات الصليبية وتحالفهم وتعاونهم مع التتار اعاد سيطرتهم على فلسطين وبيت المندس بالذات ، فغزوة المبارصة على الاسكندرية سنة 767 هـ (1365 م) كان غرضها الوصول الى بيت المندس عن طريق الناهرة (22) . وبعد فشلهم حول الفرنج نشاطهم نحو بلاد الشام ، فهاجموا طرابلس ونهبوها ، ثم هددوا بيت المندس نفسه ، حيث اجتاحت قواتهم يافا فرضة

(18) المرزبي : السلوك ، ج 3 ق 1 ص 149 .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 11 ص 52 .

(19) النجوم الزاهرة ، ج 11 ص 30 . ويدول المرزبي (وهو اول من باشرها نيابة سلطنة) . (السلوك ج 3 ق 1 ص 115) . وانظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ط دار الشعب ، الناهرة 1960 ، ص 184 ، 185 .

(20) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص 94 ، احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك في مصر والشام ، ص 208 . يوسف غواثمة : تاريخ شرقي الأردن (النسم السياسي) ، ص 57 .

(21) يدول المرزبي (امتدت التتار الى القدس والكرك تنهب وتأسر) . السلوك ، ج 1 ق 3 ص 890 . ويدول ايضا : (نهبت التتار الاغوار حتى بلغوا الى القدس وعبروا غزة وقتلوا بجامعها خمسة عشر رجلا وعادوا الى دمشق وقد اسروا خلعا كثيرا) . السلوك ، ج 1 ق 3 ص 896 . وانظر : ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 122 .

Atiya, op, Cit. P. 357 (22)

ويذكر النويري الاسكندراني ان الذين اشتركوا مع الدبارصة في غزوة الاسكندرية : البناقة 14 غرابا ، الجنوية 2 غرابين ، الروادسة 10 غرابان ، الفرنسيين 5 غرابان .

(الاعلام بالاعلام ، ج 2 ص 230) .

الندس على البحر المتوسط في سنة 813 هـ (1410 م) (23) ، ولم ينف الأمر عند هذا الحد ، بل تسللت قوات فرنجية الى الندس نفسه عن طريق الحج (24) ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق حلمهم القديم .

ولما ادرك السلطان الاشرف شعبان عظم الخطر الذي يهدد بيت المندس من الصليبيين ، عمد الى رفع مرتبة نائبها فجعله برتبة طبلخاناه (25) ، ولكن النيابة بنيت مرتبطة بنائب دمشق . وقد زود السلطان نائب بيت المندس بالدوات والعتاد كي يتمكن من صد الاخطار التي تهدد البلد المندس . الا ان المرزبي ذكر في سنة 796 هـ (1393 م) ان السلطان الظاهر برقوق انعم على الأمير قردم الحسيني بنبابة الندس ، وذلك في غرة اثناء توجهه لمحاربة التتار برعامة تيمور لنك .

وهذا النص الذي اوردته المرزبي ، هو اول اشارة صريحة عن تولية نائب لنبابة بيت المندس من قبل السلطان في القاهرة ، وسببه الخطر التتاري الذي اخذ يهدد دولة المماليك وبلاد الشام ويضغط عليها بشدة . ان خوف الظاهر برقوق على المدينة المندسة ، دفعه الى استحداث نيابة مستقلة فيها ، كي تستطيع الوقوف في وجه الاخطار الداهمة تماما كما فعل السلطان الاشرف شعبان بعد غزوة بطرس لوزجنان للاسكندرية فاستحدث نيابة الاسكندرية وجعل فيها اميرا كبيرا وزوده بالرجال والعتاد ، للوقوف في وجه الخطر الفرنجي الذي ما فتى يهدد السواحل الشامية والمصرية معا .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ، ان مجير الدين الحنبلي ذكر ان تولية النيابة والنظر في بيت المندس كان يتم من قبل نواب الشام ، ولم يزل الأمر كذلك الى نحو 800 هـ (1397 م) فأصبح تولية النائب من قبل السلطان في القاهرة (26) . والملاحظ هنا ان التاريخين لدى المرزبي والحنبلي متشاربان ، مما يدعم وجهة النظر التي ذهبنا اليها . اصف الى ذلك ان المرزبي وابا المحاسن يشيران بعد هذا التاريخ الى تولية نواب في نيابة بيت المندس كغيرها من نيابات بلاد الشام (27) . ففي سنة 844 هـ (1440 م) ذكر

(23) المرزبي : السلوك ، ج 4 ق 1 ص 143 .

(24) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج 2 ص 317 .

(25) وقد ايد ذلك المؤرخان الخالدي والفلسندي معا ، اما التاريخ الذي ذكره الفلسندي من ان نيابة بيت المندس استحدثت في سنة 777 هـ (1375 م) ، فاننا لا نميل الى الأخذ به ، فمن دراستنا للاحوال السياسية والعسكرية في هذه السنة ، لم نجد فيها من الأمور الهامة التي دفعت السلطان لاستحداث نيابة في بيت المندس ، فلا يوجد ما يبرر هذا العمل .

الفلسندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 .

الخالدي : المنصد الرفيع ، لوحة 147 مخطوط .

(26) مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج 2 ص 282 .

(27) وعلى سبيل المثال انظر : المرزبي : السلوك ، ج 3 ق 3 ص 1038 . ج 4 ق 1 ص : 81 ، 88 ، 109 ، 138 ، 188 ، 266 ، 446 ، 451 ، 483 ، ج 4 ق 2 ص 975 ، ج 4 ق 3 ص 1161 ، وانظر ايضا : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 12 ص 231 ج 13 ص 75 ، 90 ، 105 ، 126 ، ج 14 ص 10 ، 262 ، ج 15 ص 76 ، 291 ، 294 ، 318 ، 322 ، 331 ، 371 ، 372 ، 384 ، 389 ، 448 ، 532 ، ج 16 ص 127 ، 130 . وانظر كذلك : ابن الصبري : نزهة النفوس والابدان ، ج 2 ص 287 ، ج 3 ص 44 ، 348 .

المريزي النيابات في بلاد الشام على النحو التالي : نيابة الشام ، نيابة حلب ، نيابة طرابلس ، نيابة حماه ، ونيابة صفد ، ونيابة غزة ، ونيابة القدس ، ونيابة الكرك (28) . أما أبو المحاسن فزاد عليها نيابة ملطية (29) . ومن هنا نجد أنه أصبح في فلسطين ثلاث نيابات هي : نيابة صفد ، ونيابة بيت المقدس ، ونيابة غزة ، وهذا يناقض ما ذهب اليه لويس وغيره من الباحثين ، من أن فلسطين في العصر المملوكي كانت تشتمل على نيابتين فقط ، هما نيابة غزة ونيابة صفد (30) . وهكذا فالسلطان المماليك ، اولوا المدينة المقدسة اهمية خاصة فجعلوها نيابة مستقلة في سنة 796 هـ (1393 م) على رأسها أمير كبير ، كي ينف بدوة وحزم أمام الاخطار والاطماع الصليبية والتتارية معا .

الوظائف في نيابة بيت المقدس

نائب السلطنة :

أصبح بيت المقدس نيابة مستقلة سنة 796 هـ (1393 م) ، على رأسها أمير كبير ولايته بمرسوم شريف من القاهرة . وكان نائب السلطنة يقيم في (دار النيابة) (31) ، الواقعة بجانب الرواق العلوي من المسجد الأقصى بجوار منارة الغواغو (32) . وكان النائب يجلس في صدر الايوان الخاص المسمى (ايوان الحكم) ، ليحكم بين الناس ولينظر في شؤون النيابة ولكن نائب بيت المقدس خضر بك بنى منعدا ملاصقا لايوان الحكم من جهة الشمال ، وصار يجلس فيه على عادة (مجالس الحكم) في الديار المصرية (33) . ودار النيابة هذه اقيمت مكان المدرسة الجاولية التي بناها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة 715 هـ . وخصصها للمذهب الشافعي ، وتحولت الى دار للنيابة في سنة 800 هـ (1400 م) (34) .

(28) المريزي : السلوك ، ج 4 ق 3 ص 1200 .

(29) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 15 ص 226 .

ملطية او ملاطية : بلدة كبيرة حصينة . تقع على سفوح جبال اللكام ، وهي احدى الحصون المنيعه منذ العصر العباسي . تكثر حولها التلال المكسوة بالاشجار والسهول الخصبة .

(لي سترانج : فلسطين في العهد الاسلامي ، ص 480) .

(30) Cohens et Lexis, Population and Revenue in the towns of Palestine , P. 9.

(31) مجير الدين الحنبلي ، الأتس الجليل ، ج 2 ص 274 .

(32) المنهاجي السيوطي : إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، مخطوط جامعة برنستون ، لوحة 745 . مجير

الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ج 2 ص 308 .

(33) مجير الدين الحنبلي ، نفس المصدر ، ص 337 .

(34) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 272 .

عارف العارف : تاريخ القدس ، ص 90 .

وكان لثائب بيت المندس اقطاع خاص ، يشتمل على عدة قرى ، وذكرت المصادر ان من بين هذا الاقطاع مدينة اريحا في غور الأردن (35) . وفي احيان كان يجمع اليه نظر الحرمين الشريفين الدس والخليل فيطلبون عليه (ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالدس الشريف وبلد سيدنا الخليل) وهذا امتياز لم يحظ به اي نائب من نواب بلاد الشام . وبذا نال النائب قوة وتشريفا . وفي احيان كان النائب يجمع بين : كاشف الرملة ، وكاشف نابلس واستادار الاغوار ، ومتولي الصلت وعجلون ، كما حدث سنة 840 هـ (1436 م) في دولة الاشرف برسباي ، الذي جمع للامير طوغان العثماني بين هذه الوظائف (36) . وهو اقصى اتساع بلغت نيابة بيت المندس .

اما تولية النائب فكانت تتم بمرسوم سلطاني . وعندما يتولى هذا المنصب او تتجدد نيابته مرة اخرى ، يدخل المدينة مرتديا خلعة النيابة ، يحف به النضاة والماليك واعيان المدينة فتزين الاسواق وتصدق البشائر ، ثم يدخل المسجد الاقصى حيث ينرا المرسوم السلطاني على المجتمعين (37) . وكانت الطبلخانة تدق على باب بيته كل ليلة (38) ، تماما كما يحدث للامراء الكبار في الدبار المصرية . ولنباية السلطنة في بيت المندس ثلاث ولايات :

1 - ولاية الخليل .

2 - ولاية نابلس .

3 - ولاية الرملة (39) ، وفي احيان كان المرسوم السلطاني ينص على توليته (نيابة الدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس) (40) .

وفي اواخر القرن التاسع الهجري ، تولى نيابة بيت المندس نواب اشتهروا بالظلم والدسوة ، فأسأوا الى النيابة وسكانها ، ومنهم من تولاها بمال بذله الى السلطان في الناهرة ، ففي سنة 892 هـ (1487 م)

(35) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 75 ، 323 .

اريحا : عاصمة الغور ويعتبرها البعوي من البلاء . وتبعد مسافة يوم عن الدس (لي سترانج : ص 315) .

(36) ابن الصيرفي ، نزعة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، الناهرة ، 1970 - 1974 ، ج 3 ص 383 . مجير

الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 2 ص 275 . الكاشف : من وظائف ارباب السيوف ، ويحكم على جميع البلاد التي يتولى

كشفها فيجتمع الى الامراء ويمد السباط ويحضره النضاة وتترا النصص بين يديه .

الملشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 25) .

الاستادار : من وظائف ارباب السيوف . وتعني الأمير الذي يتولى قبض مال السلطان ، او الأمير وصره . وكان

يتولى امر البيوت السلطانية كلها ، وصاحبها امير كبير .

(الملشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ص 457) .

(37) مجير الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج 2 ص 337 .

(38) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 280 .

(39) الخالدي : المصدر الرفيع المنشأ ، لوحة 147 (مخطوط) .

مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج 2 ص : 275 ، 367 ، 373 ، 374 .

(40) الدرزي : السلوك ، ج 4 ق 2 ص 975 . وانظر :

ابن الصيرفي : نزعة النفوس والابدان ، ج 3 ص 348 .

تولى النيابة ونظر الحرمين بالندس الامير دوقاق (ببذل عشرة الاف دينار للخزائن الشريفة . غير ما تكلفه لاركان الدولة) (41) .

ومن الوظائف الأخرى الموجودة في النيابة نذكر : نائب البلعة ، ووالي المدينة والحاجب ، والدوادر . اما الوظائف الدينية فمنها : ناظر الحرمين الشريفين ، ومشايخ الصلاحية ، والنضاة والمحتسب وناظر البيمارستان . اما الوظائف الديوانية فنذكر منها :

ناظر الجيش :

وموضوعها التحدث في الاقطاعات الخاصة بنبابة بيت المندس ، والكتابة بالكشف عنها ، واخذ خط النائب عليها بعد اخذ رايه ، وضبط الاقطاعات المنطعة للامراء والاجناد في النيابة . ثم الكتابة الى السلطان عن الاقطاعات المتوفرة عن اصحابها بالموت ونحوها ، حيث تحمل الى ديوان الجيش بالديار المصرية وبمقتضى ذلك يخرج المنشور السلطاني بشأن هذه الاقطاعات (42) . وهذه الوظيفة ديوان خاص تبنت فيه المناشير الخاصة بالاقطاعات المنطعة في النيابة ، والصادرة من السلطان في القاهرة ، ويساعد الناظر في مهمته كتاب وشهود (43) .

جيش نبابة بيت المقدس

تردد في المصادر عن وجود قوات في نبابة بيت المقدس . مما يؤكد ان جيشا خاصا وجد بها . ملها في ذلك مثل بنية نيابات بلاد الشام . ولدينا احصائية بعدد جيوش نيابات بلاد الشام اوردها ابن شاهين الظاهري ، ولكنه لم يورد شيئا عن عدد جيش بيت المقدس (44) . وبذا لا نستطيع اعطاء رقم صحيح لعدد هذا الجيش . وان كنا نرى بالمنارئة بجيوش نيابات كل من حماد وصفد والكرك (45) . ان جيش نبابة بيت المقدس كان بحدود الألف فارس ما عدا الرجالة ورجال الدبائل العربية في جبل المندس والحليل وجبل نابلس .

وقد اشتركت قوات بيت المقدس في قمع الفتن في النيابة نفسها وفي خارجها وفي التجاريد والحروب التي خاضها المماليك ضد العثمانيين . ففي سنة 821 هـ (1418 م) ثارت عربان بني عذبة في سرقسي الاردن على نائب الكرك . فطلب السلطان الى نائب المندس ونائب غزة نجدة نائب الكرك (46) الا انه في نفس الوقت اسر لنائب غزة الناء الدبض على نائب الكرك . فألّى النائبان الدبض عليه حسب رغبة

(41) محير الدين المنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 342 .

(42) الدمشندي : صبح الأعشى . ج 4 ص 190 .

(43) الدمشندي . المصدر نفسه . ج 4 ص 31 .

(44) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . باريس 1894 م ص 104 ، 105 .

(45) ابن شاهين الظاهري . المصدر نفسه . ص 104 . وللباحث : تاريخ سرقسي الاردن (السمة الحضاري) ص

(46) المريزي : السلوك . ج 4 في 1 ص 446 .

السلطان ، وارسل مع نائب الدندس الى دمشق حيث سجن بملعنها (47) . وفي سنة 827 هـ (1424 م) انشركت قوات الدندس ببناءة نائبها الامير شاهين الذباح في قتال نائب دمشق تنبك البجاسي النائر في دمشق . بالاشترك مع قوات مصر وصفد ، وتمكنوا من الناء النبض عليه ، واعتاله في قلعة دمشق (48) . ثم انشركت قوات بيت الدندس مع قوات مصر وصفد في سنة 842 هـ (1438 م) لمحاربة الأمير ابنال الحكمي نائب دمشق الخارج عن الطاعة ، فحاربوه وهزموه والنوا النبض عليه (49) .

وفي اواخر دولة المماليك الثانية قام المماليك بارسال التجاريد لمحاربة شاه سوار واعوانه الذين صاروا يضغطون بشدة على حدود دولتهم الشرقية والشالية . وقد انشركت النوات من بلاد الشام في هذه التجاريد ، وخصوصا الرجال المجندون من جبل الدندس والخليل وجبل نابلس (50) . ففي سنة 875 هـ (1470 م) انشركت قوات بيت الدندس ببناءة نائبها الامير يوسف الجمالي في قتال شاه سوار صحبة المائد الأمير يشبك الدوادار . فهزما شاه سوار والنبا النبض عليه ، واستولت النوات المملوكية على البلاد التي كان قد استولى عليها ، وكانت قوات بيت الدندس قد عادت من هذه التجريدة في 23 شعبان 876 هـ (51) .

وفي سنة 889 هـ (1484 م) بدات الخلافات بين السلطان الاشرف قايتاي والسلطان بايزيد بن عنان ملك الروم (52) . فجهز الاشرف قايتاي النوات لنتال ابن عنان وحليفه علي دولات اخي سوار ، وارسل بطلب النوات من بلاد الشام . فنام الأمير جانم نائب الدندس باعداد النوات من النبايل العربية واهالي جبل نابلس والدندس ، وسار بهم الى الرملة حيث التقى مع الجيش المملوكي النادم من مصر ببناءة الأمير تراز التمشي (53) .

(47) المديزي : المصدر نفسه ، ج 4 ق 1 ص 451 .

(48) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج 14 ص 265 ، ابن الصيرفي : نزهة النفوس ص 39 ، 44 . وانظر : الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 274 .

(49) المديزي : السلوك ، ج 4 ق 3 ص 1112 ، 1113 ، 1137 ، 1138 .

(50) وقد قتل شاه سوار الكير من الجيش المملوكي ، فابن اياس يذكر النتل في احدى هذه التجاريد (واما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشير والتركيات والغلمان فما امكن حصره) . (ابن اياس ، بدائع الزهور ، ط الشعب ص 413) .

(51) الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 291 . وانظر : ابن اياس : بدائع الزهور ، ط الشعب ، ص 427 ، 431 ، 436 . ويصف ابن اياس نهاية شاه سوار ويذكر انه افتيد الى الناهرة حيث اعدم على باب زويلة سنة 877 هـ . (بدائع الزهور ، 439) .

(52) ابن اياس : بدائع الزهور ، ط الشعب ، ص 518 .

(53) الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 332 . ويقول ابن اياس ان هذه الحادثة اول الفتن مع ابن عنان بسبب تعصب الأخير لعل دولات ، واستمرت الحروب بين العثمانيين والمماليك حتى انتهت بسقوط الدولة المملوكية . (بدائع الزهور ، ط الشعب ، ص 522) .

واستمرت الحروب بين الطرفين . فأرسل السلطان في السنة التالية تجريدة لنتال ابن عثمان . وصفها ابن اياس بأنها (من أعظم التجاريد) (54) . ولكن السلطان اضطر الى جمع الاموال والرجال من أنحاء الدولة (وحصل للناس من الممالك ما لا خير فيه . من أخذ البغال والخيول وغير ذلك . ما حصل به الضرر الشامل وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة (55) . حتى أن العلماء والفنهاء لم يسلموا من ذلك . ففي سنة 891 هـ (1486 م) . قدم الامير ممالي الخاصكي الى بيت المقدس ورسم على اكابر الناس وأخذ منهم مالا . فأخذ من ناظر الحرمين الامير ناصر الدين بن النشاشيبي أربعة بغال وحصانا . ومن النائب جانم 200 دينار . ومن شيخ الصلاحية 30 ديناراً ومن الناضي فخر الدين بن نسيبة 400 ديناراً . ومن الناضي شهاب الدين الجوهري 300 ديناراً . وحصل للناس في بيت المقدس منه شدة (56) . ثم قدم بعده الأمير أقبردي الدوادار لتجهيز الرجال من جبل نابلس والندس لنتال بايزيد بن عثمان ملك الروم . وصار يتنقل من مكان الى آخر لجمع الرجال ودفع النفقات لهم . فتارة ينزل بأرض قاقون وتارة بأرض اللجون (57) وتارة بالرملة . وأثناء اقامته في جبل نابلس أبقي الشيخ خليل بن اسماعيل في مشيخة جبل نابلس على عادته (58) .

ولكن الصراع مع ابن عثمان والممالك أخذ يزداد ويستشري . ففي سنة 893 هـ (1488 م) امر السلطان بأعداد النوات لمحاربة ابن عثمان . فأرسل الامير أقبردي الدوادار والناضي زين الدين بن مزهر كاتب السر الى جبل نابلس والندس لتجهيز النوات للاشتراك في التجريدة (59) . وحضر اعيان بيت المقدس للنائها في الرملة . فسلم الأمير أقبردي لنائب الندس وقاضيتها مبلغ خمسة آلاف دينار ليصرف الى الرجال المعينين من جبل الندس والخليل (60) . وعند تمام استعدادهم غادرت النوات بيت المقدس .

(54) ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 528 .

(55) ابن اياس : المصدر نفسه . ص 529 .

(56) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 335 .

(57) قاقون : حصن يقع في فلسطين بجوار طولكرم . وكان يتبع لاقليم قيسارية الواقعة على الشاطئ . وورد ذكره في المصادر الصليبية كأكو . شاكو .

(لي سترانج . ص 438) .

اللجون : بلدة تقع في حد فلسطين مع الاردن على بعد 20 ميلاً عن طبريا و 40 ميلاً عن الرملة . وهناك اللجون الواقعة في البلقاء بشرقى الاردن على طريق الحج .

(لي سترانج . ص 463 . 464) .

(58) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 335 . ويذكر ابن اياس ان أقبردي حضر لائحاد الفتن التي حدثت بين عربان جبل نابلس والتي قتل فيها العديد من الامراء وتذكر منهم الأمير أقبردي بن بخشاش الا ينال استادار الاغوار .

(بدائع الزهور . ط الشعب . ص 531) .

(59) ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 547 .

(60) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 342 .

في مستهل رجب ، وانضمت الى قوات جبل نابلس ، ومنها سارت العساكر المدسية والنابلسية لمحاربة ابن عشان وحصلت (الشدة بسبب التجاريد وذهاب الناس الى بلاد الروم) (61) .

وقد عاد بعض رجال هذه التجريدة الى بلادهم دون اذن من قادتهم ، فعمد السلطان الى ارسال الامير اقبردي الدوادار الى جبل نابلس والندس وطلب من نائب الندس دقماق استرجاع مال التجريدة ممن دفع اليه من الرجال . فاسترجع دقماق الاموال بالضرب والحبس والتعذيب (وفعل بهم فعلا لم يسمع بمثله في الجاهلية ، حتى ان بعض الناس باع ابنته كما يباع الرقيق ، وتفاحش الامر وبني الناس في شدة شديدة ومحنة لم تعهد بالارض المدسية من قبل (62) . ومع ذلك فان تجهيز المحاربين من الندس ونابلس بني قائما ، ففي سنة 895 هـ (1490 م) ارسل السلطان الامير أربك لجمع الرجال من جبل الندس وجبل الخليل ونابلس وغيرها من المناطق الفلسطينية للاشتراك في حرب بايزيد بن عشان ، وحصل للناس شدة بسبب ذلك (63) . ثم انضمت هذه القوات الى قوات الجيش المملوكي القادم من القاهرة ، وقد وصف ابن اياس هذه التجريدة بأنها من نوادر التجاريد لكثرة من اشترك فيها من الامراء والاجناد (64) . وتؤكد المصادر أن الطاعون الذي اجتاحت البلاد سبع مرات أفنى عددا كبيرا من الجيش المملوكي (65) . لذا عمد المماليك الى تجنيد الرجال من نيابة بيت المدس بسبب كثافتها السكانية ولما عرف عن رجالها من البأس والقوة .

وكان جيش نيابة بيت المدس كغيره من جيوش النيابات الأخرى في بلاد الشام يشتمل على امراء واجناد ومماليك وكان هذا الجيش يصغر ويكبر حسب الظروف ، فهو في تدويرنا الف فارس نظامي ما عدا الرجالة (المشاة) ومماليك الامراء ، ويبلغ احيانا الألوف ويضم عندئذ رجال الدبائل والعشائر في جبل الندس والخليل وجبل نابلس ، الذي كان السلطان يصرف لهم النفقات والجوامك كما رأينا .

التجارة الداخلية والخارجية في النيابة :

اشتهر بيت المدس بأسواقه الكثيرة وابنته العالية ، وصناعاته العديدة (66) . وكانت اسواقه زاخرة بصنوف السلع المختلفة ، منها ثلاث قضبات (قيل أنه لم يكن لغالب البلاد نظيرها (67) . ومن المعروف ان اسواق المدن الاسلامية في العصور الوسطى ، كانت متخصصة فكل سوق اختص بسلعة

(61) الحنبلي : المصدر نفسه ، ج 2 ص 343 .

(62) المصدر نفسه ، ج 2 ص 345 .

(63) المصدر نفسه ، ج 2 ص 348 .

(64) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص 559 .

Kedar B. Merchants in Crisis, Yale, U.S.A. 1976 p. 14.

(65)

(66) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ترجمة مجيى الخشاب ، بيروت ، 1970 ، ص 56 ، ابن شاهين ، زبدة كشف

الممالك ، ص 23 ، لي سترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ، ص 97 .

(67) ابن شاهين : المصدر السابق ، ص 23 .

معينة ، فوجد في بيت المندس سوق الزيت ، وسوق النطانين ، وسوق الطباخين (68) ، وسوق النماش ، وسوق الحضر ، وسوق العطارين ، وسوق الحريرية ، وسوق الفخر (نسبة لفخر الدين صاحب المدرسة الفخرية) وبه المصابين التي يعمل بها الصابون (69) .

وكذا وجدت الاسواق المتخصصة في كل من الخليل والرملة ونابلس (70) . ويحيط بمدينة بيت المندس منطقة خصبة واسعة ، تدوم بتزويد المدينة المندسة بكم حاجاتها من الفواكه والحبوب والزيوت ، مثلها في ذلك مثل دمشق التي كانت تعتمد على معظم منتجات الاراضي الشامية كالزيت من نابلس ، والصابون من نابلس والمندس وسرمين (71) ، والتين من حلب والارز من بانياس ، والحليب من بعلبك ، والسكر من الاغوار ، والفحم من عجلون ، والرمان من الصلت ، وبذلك كانت هناك حركة تجارية داخلية بين هذه المدن والمناطق المحيطة بها (72) .

وكانت الاسواق الاسبوعية التي تنام في المدينة فرصة للدرويين ورجال النبائل للحصول على ما يحتاجون اليه من سلع ، منابل منايضتهم لمنتجاتهم من الحبوب والفواكه والاجبان والبسط والسجاد والزيت والتين المجفف واللوز والجوز وغيره من السلع المختلفة (73) .

وفي العادة تنشط التجارة الداخلية في بيت المندس في المواسم ، ففي موسم الحج من كل عام ، يحتشد في بيت المندس اعداد كبيرة من مسلمي بلاد الشام وغيرها للاحتفال بالحج وزيارة المسجد الاقصى والصخرة . وقد كانوا من الكثرة بحيث يبلغ عددهم في بعض السنين عشرين الفا (74) . فتتشتت الحركة التجارية في اسواق المدينة المندسة ، ويعم الخير ليس على المندس وحده بل على المنطقة المجاورة ، حيث يهرع سكانها للتجارة مع وفود الزائرين . ولم ينتصر الأمر على هذا الموسم (او السياحة الداخلية) ، بل يجتمع في البيت المندس اعداد اخرى كبيرة من النصارى واليهود لزيارة اماكنهم المندسة ، وللاحتفال بمواسمهم الدينية (75) . لذا تنام في هذه المناسبات الاسواق الخاصة التي تعود بالنفع على تجار المندس

(68) الحنبلي ، الانس الجليل ، ج 2 ، ص 304 .

(69) الحنبلي : المصدر نفسه ، ص 53 ، 54 .

(70) رحلة ابن بطوطة ، دار التراث ، بيروت ، 1968 ، ص 56 ، 57 .

(71) سرمين : بلدة مشهورة تقع في منطقة حلب وتشتهر بأشجار الزيتون وصناعة الصابون المسمى بالاجري الذي يصدر الى دمشق والناصرة ، ويصنع فيها نوع من الصابون المعطر ذو اللون متعددة يستعمل لغسل الوجه والايدي .

(رحلة ابن بطوطة ، ص 63 ، لي سترانج ص 399) .

(72) Lapidus, Muslim Cities in the Late Middle Ages, U.S.A. 1967, P. 17

يوسف غوانة : تاريخ شرقي الاردن ، القسم الحضاري ، ص 55 .

(73) ناصر خسرو ص 99 ، ابن بطوطة ، ص 97 ، اي سترانج ، ص 98 ، 486 .

(74) ناصر خسرو ، ص 55 .

(75) ناصر خسرو ص 55 ، المفريزي : السلوك ، ج 4 ق 2 ص 637 ، 928 .

ابن شاهين : زبدة كشف المالك ، ص 23 .

والمستبشرين من اهالي المناطق المحيطة . الذين ينصدون البيت المقدس في تلك المواسم . وهؤلاء النصارى باتون من انحاء مختلفة من العالم بنصد الحج الى كنيسة النيامة فمنهم الشاميون والاوربيون والمصريون والاحباش . حتى ان الاحباش بلغوا في سنة 886 هـ (1481 م) ثلاثة آلاف زائر (76) وفي سنة 922 هـ (1516 م) بلغوا ثمانمائة زائر (77) .

وكانت المعاملات التجارية تتم عن طريق المنايضة او بواسطة الدنانير الذهبية والدراهم الفضية المسكوكة في انحاء مختلفة من دولة المماليك . ومع ان المصادر الندية اشارت الى وجود دار السكة في بيت المقدس . الا اننا لم نعر على ما يشير الى استمرارها في اداء دورها في العصر المملوكي . فالنيابات في بلاد الشام كانت تتعامل كما اسلفنا بالدنانير والدراهم المملوكية المضروبة في دمشق او القاهرة (78) . وتشير المصادر الى وجود الدنانير المصورة في بيت المقدس (79) . ولاشك ان تجار هذه المدينة كانوا يحصلون عليها عن طريق الحجاج الاوربيين الذين كانوا يزورون بيت المقدس . او عن طريق المبادلات التجارية التي كانت تتم بين بيت المقدس واوروبا عن طريق ميناء يافا على ساحل البحر المتوسط (80) .

لقد كانت العلاقات التجارية بين الدولة المملوكية والدويلات التجارية الايطالية والاوربية في اوج ازدهارها . وقد كان للتجار الأجانب في الموانئ الشامية والمصرية وكالات وقناصل لرعاية شؤونهم التجارية (81) . ولم ينقص الأمر على الساحل بل بلغ نشاط التجار الاوربيين الى الداخل الى دمشق وعجلون وبيت المقدس (82) . فوجد في بيت المقدس وكالة خصصت للتجار الاجانب (83) . بالاضافة الى الخانات والنياسر التي كانت تؤجر التجار ويبيع فيها اصناف البضائع المختلفة (84) . وذكرت المصادر عن وجود فروع لبعض الشركات التجارية الايطالية فالشركة الفلورنسية Bardi كان لها فروع عديدة في ايطاليا نفسها وفي الخارج ففي الخارج وجدت فروعها في : برشلونة . وقبرص . وارغون .

(76) ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان . القاهرة . 1964 . ج 1 ص 39 .

(77) ابن طولون : المصدر نفسه . ج 2 ص 5 .

(78) اللقسندي : صبح الاعشى . ج 4 ص 199 .

يوسف غوانة : تاريخ شرقي الاردن . القسم الحضاري . ص 78 .

(79) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 305 .

ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 554 .

(80) المرزبي : السلوك . ج 4 ق 1 ص 143 .

(81) النويري الاسكندراني : الانام بالاعلام . ج 2 ص 137 . 156 . ويذكر انه وجد في الاسكندرية فندق

الكيتلايين . وفندق الجنوين . وفندق الموزة . وفندق المرسيلين . ج 2 ص 171 .

(82) النويري : نهاية الارب . ج 31 لوحة 91 (مخطوط) .

وللباحث . تاريخ شرقي الاردن . القسم الحضاري . ص 67 .

(83) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 52 .

(84) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 52 .

والنسطنطينية . والندس . ولندن . ومرسيليا . ونيس . وباريس ! وتونس (85) . ثم ان الوجود الاوروبي في بيت المندس كان يتمثل في اعداد كبيرة من النسوس والرهبان في كنيسة النيامة وغيرها من الكنائس (86) . وهذا يؤكد وجهة نظرنا النائلة بأن العلاقات الاقتصادية والتجارية والدينية بين بيت المندس واوروبا كانت مستمرة .

وقد كانت سلع بيت المندس ومنتجاته تصدر الى الاسواق الخارجية فبعض هذه السلع كان يصل لاسواق اوروبا كالبلسم من اريحا والحرمن البحر الميت . والزيت والصابون من نابلس والندس . والنبيذ من الندس والخليل . والنيلة من وادي الاردن . والسكر من الاغوار الذي كان يصدر لاسواق الخارجية الاوروبية على شكل غسل او باورات او مسحوق (87) . كذلك صدر بيت المندس بعض منتجاته وسلعه الى الاسواق الشامية والمصرية (88) . مثلها في ذلك مثل بنية المنتجات الشامية التي كانت تجدد طريقها الى مصر . فمن بيت المندس المصنوعات اليدوية من فضية وخشبية . والزيت والصابون والفواكه . ومن دمشق السيراميك والزجاج والمنسوجات الجيدة . ومن الكرك البسط والاجبان والفواكه واللوز والجوز (89) . كل هذه السلع كانت تصدر الى مصر اما بحرا عن طريق الموانئ الشامية كصيدا وصور وبيروت وعكا وبافا . او عن طريق بري عبر قطيا على الحدود المصرية الشامية . حيث كان متحصل المكوس فيها الف دينار يوميا (90) . وفي الناهرة أقيمت للتجار الشاميين النياسر الخاصة والوكالات . كما اقيمت الخانات على الدروب لخدمة النوافل التجارية النادمة من الشام الى مصر وبالعكس (91) .

اما المكاييل التي كانت مستخدمة في بيت المندس . فهي القرارة . والقرارة تساوي 12 كيلا . والكيل يساوي 6 امداد (92) . وذكر المصادران بيت المندس وعمان انفردتا (بالمد) . وكان مد بيت المندس يساوي 3/2 النفيز . والنفيز يساوي 4 وبيات او 36 صاعا (93) . واستعملت مدينة الرملة ايضا النفيز

(85) Saponi, Amando, The Italian Merchant in the Middle Ages, New York 1970, p. 51.

(86) ابن اياس : بدائع الزهور ، ط الشعب ، ص 543 .

(87) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, pp. 394-395.

(88) ابن شاهين ، المصدر السابق ، ص 23 .

(89) الفرزي : السلوك ، ج 3 ص 530 . وللباحث : تاريخ شرقي الأردن . النسم الحضاري . ص 88 .

(90) ابن بطوطة : الرحلة ، ص 5 .

(91) ابن شاهين : المصدر السابق ، ص 23 . Lapidus, op. Cit. pp. 17-18.

(92) ابن الاخوة : معالم الدربة في احكام الحسبة . الناهرة ، 1976 ، ص 51 . 82 للفلسندي : صبح الأعشى .

ج 4 ص 181 ، 198 .

والقرارة مد ونصف تساوي ثلاثة ارادب مصرية . (صبح الأعشى : ج 4 ص 181) .

(93) لي سترانج . ص 65 .

والوبية والمكوك والكيلجة ، فالوبية تساوي مكوكين ، اما المكوك فيساوي 3 كيلجات ، والكيلجة تساوي صاعا ونصف (94) .

واستخدم المندسيون الرطل في اوزانهم ، اما عن مساواة هذا الرطل بالدرهم فلا نعلم ذلك (95) ، فاختلف الرطل من مدينة الى اخرى فرطل دمشق يساوي 600 درهم اما رطل غزة فهو 720 درهما ، وفي الكرك يساوي 900 درهم ، اما في عجلون فهو 1200 درهم (96) اما المنايس فاستخدم في نيابة بيت المندس ذراع النباش ، وكان ذراع النباش الشامي يزيد على ذراع النباش المصري بمقدار نصف سدس ذراع (97) ، اما دورها فكانت تماس بذراع العمل وطوله ثلاثة اشبار بشبر رجل معتدل (98) .

النشاط السكاني في النياحة :

تدل الدراسات الديموغرافية ان سكان بيت المندس بلغوا في القرن الخامس للهجري (الحادي عشر الميلادي) 20,000 نسمة (99) ، ثم ارتفع هذا العدد في القرن السادس الهجري (الثاني والثالث عشر الميلادي) ، فبلغ 30,000 نسمة (100) . وبلغت مساحة المدينة المندسة 720 دونما ، فكثافتها السكانية اذن 42 شخصا للدونم الواحد (101) . ومن الملاحظ ان الكثافة السكانية في بيت المندس كانت في المرتبة الثانية بين المدن الفلسطينية بعد عكا ، التي بلغت كثافتها السكانية 50 شخصا الدونم الواحد (102) .

(94) المندسي : احسن التأسيس ، ص 181 . وللباحث : عمان حضارتها وتاريخها ، عمان ، 1979 ص 169 .
ونزيد من التفاصيل عن الأوزان انظر : ابن سلام ، كتاب الاموال ، القاهرة ، 1968 ، ص 688 - 699 .

(95) فقد جاء ذلك في صبح الأعشى بياضا ، ج 4 ص 199 .

(96) ابن الاخوة ، معالم الفرية ، ص 139 .

صبح الاعشى ، ج 4 ص 181 ، 198 .

(97) الفلشندي : المصدر نفسه ، ج 4 ص 181 .

(98) المصدر نفسه ، ج 4 ص 443 .

(99) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص 56 .

لي سترانج ، ص 99 .

Benvenisti, The Crusader in the Holy Land p. 26

(100)

Ibid., p. 26.

(101)

Ibid., p. 27.

(102)

وبلغ عدد السكان في المدينة المندسة اوجه في القرن السابع والناامن الهجري (الثالث والرابع عشر الميلادي) . فبلغ سكان المدينة المندسة آنذاك 40,000 نسمة . فكثافتها السكانية كانت 56 شخصا للدونم الواحد . وهي اعلى كثافة سكانية وصلتها المدينة المندسة في العصور الوسطى .

ثم اخذت الكثافة السكانية في التدني . فبلغ سكانها في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) 16,000 نسمة . ثم تدنى الى النصف . فبلغ في منتصف القرن التاسع الهجري (15 م 8,000 نسمة . ثم اصبح في اوائل القرن العاشر الهجري (16 م 3,000 نسمة . ثم اخذ في الهبوط مرة اخرى . ولكن سرعان ما عاد للارتفاع ثانية في العصر العثماني (103) .

وقد حدث تخلخل في الكثافة السكانية في فلسطين اثناء الغزوة الصليبية على بلاد الشام . فهجر السكان المدن الساحلية . اما المدن الداخلية فهجرها بعض سكانها ومع ذلك فبنيت مأهولة بالعرب الوطنيين . وهذا التخلخل حدث في الرملة ويسان والخليل . اما بيت المقدس فقدت الكثير من سكانه نتيجة للغزوة الصليبية . فالمصادر اللاتينية تذكر ان الفرنجة قتلوا في المدينة المندسة عشرين الفا . بينما قدرت المصادر الاسلامية العدد بسبعين الفا (104) .

وازداد سكان بيت المقدس في العصر الايوبي . ولكن الزيادة بلغت اقصاها في العصر المملوكي . فند استقبلت المدينة المندسة اعدادا من المهاجرين . من العراق والبلاد الشرقية الذين تركوا بلادهم امام الضغط التتاري . فلاذوا بمدن الشام : حلب وحماء ودمشق والندس الذي استأثر بالعديد من هؤلاء

(103) في نهاية القرن العاشر الهجري (16 م) لم تكن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية عالية فديموغرافيتها كانت على الشكل التالي :

صفد اكبر المدن الفلسطينية : 12,000 نسمة .

الندس : 8000 نسمة .

غزة : 6000 نسمة .

نابلس : 4300 نسمة .

الخليل : 3500 نسمة

كفر كنا : 2850 نسمة

مجدل : 2800 نسمة .

لد : 2500 نسمة .

انظر : Hutteroth ET Abdulfattah Historical Geography of Palestine 1977 p. 45, 52.

(104) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . ج 8 ص 189 .

Fulcher of Chartres

A History of the Expedition to Jerusalem

New York 1973 p. 121.

New York, 1973 P. 121

Benvenisti, op. Cit. p. 146.

المهاجرين (105) . كما ان الاستقرار والهدوء الذي نعمت به المدينة المدسة . كغيرها من مدن بلاد الشام حيث نعمت بدرجة من الرورة والازدهار والامن (106) . وللأهمية الخاصة التي اولها اياها السلاطين الماليك . كل ذلك زاد في نمو المدينة وازدياد عمراتها . فانعكس ذلك على كثافتها السكانية فبلغ تعدادها 40,000 نسمة . وهو اعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط .

ولكن الكثافة السكانية اخذت في الهبوط منذ منتصف القرن الثامن الهجري (النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي) . فقد اصاب بلاد الشام بل العالم كله ما عرف في المصادر القديمة بالغناء العظيم (الطاعون) (107) . وافنى هذا الطاعون اعدادا كبيرة من بلاد الشام وبادت مدن بأكملها مثل اللد والرملة وجنين (108) . فالنمو السكاني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر اقترب من التوقف . ليس في بلاد الشام ومصر فحسب . بل في العالم كله (109) . وقد شاهد ابن بطوطة ما فعله الوباء في مدن بلاد الشام . كدمشق التي كانت تفقد يوميا الف شخص (110) . اما غزة ففقدت معظم سكانها . وتسبب الوباء في موت اعداد كبيرة من سكان بيت المقدس . ومنذ ذلك الحين اخذت الكثافة السكانية في بيت المقدس في التدني حتى بلغت اشدّها في اوائل القرن العاشر الهجري (اوائل السادس عشر الميلادي) .

ومما ساعد على تخلخل الكثافة السكانية في فلسطين . خاصة وبلاد الشام عامة الحروب والنحط والجفاف التي ضربت المنطقة في اوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . فالنريزي يذكر ان تيمورلنك خرب بلاد الشام ومدنها وقتل من اهلها ما لا يحصى عدده (بحيث اقامت القدس مدة اذا اقيمت صلاة الظهر بالمسجد الأقصى لا يصلي خلف الامام سوى رجلين) (111) . وبذكر النريزي ايضا في سنة 825 هـ (1421 م) . ان النحط والجذب اصاب حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر . ونتج عن ذلك نزوح كثير من سكان هذه البلاد عن اوطانهم (112) .

(105) السلوك . ج 4 ق 2 ص 611 . 1029 .

ابن الصيرفي : نزهة النفوس . ج 3 ص 61 .

(106) Lapidus, op. Cit. P. 16

(107) وبسبب هذا الطاعون ففدت فرنسا 4/3 سكانها . وايطاليا نصف سكانها والمانيّة ففدت مليون وربع شخص . والطاعون الذي اجتاحت اوروبا في القرن الرابع عشر كل عشر سنوات منع النمو السكاني .

(108) النريزي : السلوك . ج 2 ص 774 .

يوسف غوانة : تاريخ شرقي الاردن . التسم السياسي . ص 269 . 270 .

(109) Lopez, R. The Commercial Revolution in the Middle Ages U.S.A. 1976, p. 29.

Kedar, Merchants in Crisis, Yale, U.S.A. 1976, p. i., 5.

(110) ابن بطوطة : الرحلة . ص 96 .

(111) السلوك . ج 4 ق 1 ص 225 .

(112) المصدر نفسه . ج 4 ق 1 ص 609 . وينور : ان من العوامل الهامة في عدم تزايد السكان العوامل

الطبيعية كالطمس وكثرة الامراض وانتشارها . (Lopez, op. Cit p. 29).

ومنذ عام 833 هـ (1429 م) عاد الطاعون مرة أخرى للمنطقة ، فأصاب غزة والندس والرملة وصفد ودمشق ، وحمص وحماه وحلب ، وهلك فيه خلائق لا يحصى عددها (119) . ويقول الميريزي في حوادث هذه السنة . ان الوباء والنزلات فتكت بالناس اذ كانت (تنحدر من الدماغ الى الصدر فيموت الانسان في اقل من ساعة بغير تقدم مرضي . وكان اكثر هذا في الاطفال والشباب) (114) . ولعل هذا الوباء الذي وصفه الميريزي هو نوع من انواع الحميات النوية التي كانت تفتك بالناس بهذا الشكل الخطير (115) . ثم عاد الوباء مرة أخرى ف ضرب المنطقة في سنة 841 هـ (1437 م) فمات من جرائه خلق كثير ، في دمشق وغزة والرملة والاغوار (116) .

وهكذا نرى ان بيت المندس نتيجة للطاعون الذي اصاب المنطقة والعالم كله في منتصف القرن الثامن الهجري (منتصف الرابع عشر الميلادي) . فقد نصف سكانه ، اي ما يقارب 20,000 نسمة . ثم اخذت الديموغرافية تتدنّى في بيت المندس وفلسطين نتيجة للغزوة التتارية المدمرة ببنادة تيمورلنك سنة 803 هـ (1400 م) (117) وزاد في تدهورها النحط والجفاف الذي اصاب المدينة المندسة والمناطق المجاورة سنة 825 هـ (1421 م) بحيث هجرها كثير من سكانها (118) . اضاف الى ذلك الطاعون والوباء (الحمى) التي دهمت الندس والعديد من المدن الشامية سنة 833 هـ (1429 م) ! و 841 هـ (1437 م) ادى الى هلال خلائق لا يحصى عددها (119) . ونتيجة لذلك فقد الندس نصف سكانه . فأصبح عدد السكان في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) 80000 نسمة . وفي اواخر القرن التاسع الهجري اصاب الطاعون بيت المندس في السنوات 873 هـ (1468 م) . و 881 هـ (1476 م) و 897 هـ (1491 م) وافنى ثلثي سكانه اي حوالي 5000 نسمة (120) . ففي اوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، لم يبق في الندس سوى

(113) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 822 ، 836 .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 14 ص 337 ، 338 ، 348 .

(114) الميريزي : السلوك ، ج 4 ق 2 ص 824 .

(115) وربما كان هذا الوباء هو ما نسميه اليوم بالحمى الشوكية .

(116) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 1029 ، 1031 ، 1034 .

(117) السلوك ، ج 4 ق 1 ص 225 .

(118) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 609 .

(119) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 822 ، 824 ، 836 ، 1029 ، 1031 ، 1034 .

النجوم الزاهرة ، ج 14 ص 337 ، 338 ، 348 .

(120) وقد استنتجت ذلك من خلال دراسة قمت بها لعدد الوفيات في بيت المندس في هذه السنوات .

انظر : الانس الجليل ، ج 2 ص 286 ، 318 ، 361 .

3000 نسمة (121) . ثم بدأت الديموغرافية في الصعود . حيث بلغت في منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) 8000 نسمة (122) .

وكان سكان بيت المقدس اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود . أما النصارى فكانوا (123) يشكلون نسبة كبيرة في زمن المقدسي . و اضاف انهم كانوا اصحاب السلطة في البيت المقدس وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عن وجود النصارى واليهود في بيت المقدس . وان أعدادا كبيرة منهم تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة والكنيس (124) . وقد ازداد عدد السكان النصارى بعد الغزوة الصليبية لبلاد الشام واحتلال المدينة المقدسة . فند قتل الصليبيون الالاف من سكان القدس المسلمين . كما هجره أعداد من سكانه . وشجع الصليبيون ايضا هجرة النصارى الوطنيين الى القدس . فتذكر المصادر ان قسا من نصارى البلقاء وعمان نزحوا الى القدس . وخصص لهم هناك حي عرف (بحلة المشاركة) . لانهم قدموا من منطقة البلقاء الواقعة شرقي القدس . وبعد تحرير بيت المقدس سنة 583 هـ (1187 م) عاد السكان المسلمون للقدس فزادت نسبتهم في العصر الايوبي ومن ثم في العصر المملوكي . حتى اصبحوا يشكلون نسبة 70 - 80 % من السكان (126) .

ونصارى بيت المقدس كانوا في معظمهم من اصل عربي . بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول اوروبا المختلفة والاحباش (127) . وسكن هؤلاء الاديرة والكنائس العديدة في المدينة المقدسة وبيت لحم والتي بلغت عشرين كنيسة . اكبرها كنيسة النيامة التي كانت تتسع لثمانية آلاف شخص (128) . ووجد في بيت المقدس حارة سميت بحارة النصارى بجانب باب الخليل (128) .

اما اليهود فكانوا قلّة في العصر الاسلامي . ففي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وجد ببيت المقدس عدد من اليهود . كما وجد بها كنيس (كنيس) . وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من انحاء متفرقة من العالم (130) . وسكنوا في حارة خاصة اطلق عليها (حارة

Hutteroth, op. Cit. pp. 45.52.

(121)

Ibid, P. 52

(122)

(123) لي سترايج . ص 97 . 98 .

(124) ناصر خسرو . سفرنامه . ص 55 .

(125) النفطي : اخبار العلماء بأخبار الحكماء . ص 248 .

يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الاردن . النسم الحضاري . ص 115 . عان حضارتها وتاريخها . ص 184 .

وانظر الانس الجليل . ج 2 ص 54 .

(126)

Benvenisti op. Cit. P. 215

(127) ناصر خسرو . ص 70 .

ابن طولون مفاكهة الخلان . ج 1 ص 39 . ج 2 ص 5 .

(128) ناصر خسرو ص 75 .

(129) الانس الجليل . ج 2 ص 53 .

(130) ناصر خسرو . ص 55 .

اليهود (131) . وفي فترة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج فهجروا المدينة المقدسة . ومعظم انحاء فلسطين (132) . وامتد تعسف الفرنج لمناير اليهود . فدمروا منابرهم الثلاث . واستخدموا حجارتها في بناء بيوتهم (133) . وفي منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . قدم الرحالة بنيامين اليهودي الاندلسي الى فلسطين . وزار معظم مدنها وقدم لنا احصائية ديموغرافية لليهود . فوجد في بيت جبريل ثلاثة يهود و 12 يهوديا في بيت لحم . وفي الرملة 3 يهود . وفي ياغا يهودي واحد . وعسقلان 200 يهودي . وفي طبرية 50 يهوديا . اما بيت المقدس فلم يجد فيه يهوديا واحدا . وكانت دمشق تمثل اكبر تجمع يهودي في بلاد الشام . حيث كان بها 3000 يهودي (134) . ثم بدا اليهود يتسللون الى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج . وزاد عددهم في العصر المملوكي . وامتدوا التجارة والصياغة والدباغة كعادتهم (135) . ولم يكن عددهم كبيرا ولكن تمتعوا بنفوذ قوي بسبب ما لديهم من ثروات طائلة . ففي سنة 868 هـ (1473 م) حدث نزاع بين اليهود والمسلمين حول كنيس اليهود الموجود في حارتهم . فقد ثبت لدى النضاة ان الكنيس محدث في دار الاسلام . فاغلطوه ومنعوا اليهود من التعبد فيه (136) . ولكن اليهود في بيت المقدس بزعامه كبيرهم يعنوب . رفعوا امرهم للسلطان في القاهرة . فأمر السلطان بعض العلماء في القاهرة بالنظر في هذا الأمر . وحدث خلاف في الرأي بينهم وبين قاضي الشافعية في بيت المقدس الذي منع اليهود من كنيسهم . الا ان السلطان أرسل مرسوما في سنة 869 هـ (1474 م) الى ناظر الحرمين ناصر الدين بن الشاشيبي بتمكين اليهود من كنيسهم . وعدم معارضتهم . فمكنوا منه (137) . وقد اتسع في بيت المقدس ان اليهود بذلوا مبلغا كبيرا من الدنانير المصورة الى الخزانة الشريفة حتى مكنتهم من كنيسهم (138) . ولما ورد ذلك لمسامع السلطان . امر باعادة النظر في الامر والتحقق من امر الكنيس . فعند النضاة مجلسا آخر في المدرسة التنكزية . وكان رأي شيخ الاسلام كمال الدين ابن ابي شريف ان لا وجه لمنع اليهود من كنيسهم بغير مسوغ شرعي . وان من شهد بحدوث الكنيس في دار الاسلام عليه ان يثبت ذلك بمسند شرعي (139) . لا ان القاضي الشافعي تمكن من اثبات وجهه نظره بالشهود . واصدر امر بمنع اليهود من كنيسهم مرة اخرى . ولم ينف

(131) الانس الجليل . ج 2 ص 52 ، 56 .

(132)

Martin, E. The Crusades, p. 127.

(133)

Benjamin, Early trafels in Palestine, p. 84.

(134)

Ibid, p. 91.

(135)

Benjamin, op. Cit. pp. 85-87

الانس الجليل . ج 2 ص 305 .

(136) النص الجليل . ج 2 ص 302 .

(137) المصدر نفسه . ج 2 ص 304 .

(138) المصدر نفسه . ج 2 ص 305 .

(139) المصدر نفسه . ص 307 .

لأمر عند هذا الحد . بل توجه بعض العلماء الى الكنيس وامروا بهدمه ، فهدموا غالبيه فتوجه اليهود للسلطان في الناصرة للشكوى (140) . فأرسل السلطان الانشرف قايتباي مرسوماً بالبناء النبض على الناضي الشافعي وبعض العلماء ممن ناصروه في رايه ، ووضعوا في الحديد وارسلوا الى الناصرة (141) . فأهانهم السلطان وضرهم . ثم دعا الأمير شريك بن مهدي الدوادار الكبير لعند مجلس حضره النضاة الأربعة في الدبار المصرية وبعض العلماء . ودار البحث في امر الكنيس ، ووصف ذلك اليوم بأنه (كان يوماً مهولاً بنصرة اليهود على المسلمين) (142) . وقد استعمل الدوادار يشريك سلطانه واستخدم القوة لارهاب الحضور . فعندما تكلم رجلان من طلبة العلم بما فيه نصرة المسلمين . التى النبض عليها وسهرهما ووضعها في الزنجير (143) . ثم اخذ الأمير يشريك يهدد ويتوعد . عندئذ اصدر قاضي النضاة الشافعي في الدبار المصرية ولي الدين الاسيوطي امراً بعدم جواز المنع الصادر من التندس لفساده ، ثم افتي بعض العلماء في الدبار المصرية بجواز اعادة الكنيس . اما قضاة بيت المندس فأمر السلطان بعزلهم ومنعهم من سكنى التندس (144) .

ونتيجة لهذه الفتاوى التي حصل عليها اليهود ، تدمروا بطلبون من السلطان بتمكينهم من اعادة كنيستهم . وكان اكبر المساعدين لهم الأمير شريك الدوادار الكبير بسبب ما بذلوه له من اموال طائلة (145) . واخيراً تمكن الأمير شريك من افتتاح السلطان باعادة كنيستهم . فأصدر مرسوماً بذلك . فشرعوا باعادة بنائه في 11 ربيع الآخر سنة 880 هـ . ان اعادة بناء الكنيس اليهودي يدل على النفوذ الكبير الذي تمتع به اليهود في بيت المندس . ولدى السلطنة المملوكية بسبب امتلاكهم الاموال الطائلة وبذلهم الاموال للأمراء ورجال الدولة . وقد سمو اليوم الذي اعادوا فيه كنيستهم (عيد النصر) (146) . ومن هنا نرى ان اليهود في بيت المندس رغم عددهم النليل الا انهم كانوا في العصر المملوكي يتمتعون بنفوذ قوي لدى الحكام . ونفوذ مادي بسبب اشتغالهم بالتجارة والصناعة . مما تدمر نستطيع الدول بأن اهل الذمة من اليهود والنصارى تمتعوا في العصر المملوكي بتسامح ديني . ومارسوا حقوقهم كاملة دون تعصب . وازاولوا مهنتهم بحرية تامة . وعاشوا مع المسلمين في المدن والقرى . وان كنا نجد بعض النصارى عيشون ويشكلون نسبة كبيرة في بعض المدن والمناطق . مثل نصارى وادي موسى والكرك في شرفى الاردن . والتندس والناصرة وبيت لحم وبيت جالا في فلسطين (147) .

(140) المصدر نفسه ، ص 307 .

(141) الانس الجليل ، ج 2 ص 308 .

(142) المصدر نفسه ص 309 .

(143) المصدر نفسه ص 309 .

(144) المصدر نفسه ص 310 .

(145) المصدر نفسه ص 312 .

(146) المصدر نفسه ص 313 .

(147) أبو الفداء : سيرة البلدان ، ص 247 .

ولم يكن النصارى بمنأى عن الاحداث السياسية في المنطقة ، فنجد ان نصارى الكرك والشوبك وقفوا الى جانب السلاطين المماليك ، فأيدوا الناصر محمد بن قلاوون في ثورته بالكرك ، وقدم احد التجار النصارى الشوابكة الى الظاهر بقوق مائة ألف دينار لينفنها في اعداد الدوات والعساكر . لذا منحهم السلاطين امتيازات خاصة ، فنجد ان محمد بن قلاوون اصدر مرسوما في سنة 700 هـ (1300 م) حدد بموجبه زي النصارى واليهود ، فألزم النصارى بلبس العمامة الزرقاء ، واليهود الصفراء ، والسامرة العمامة الحمراء ، ولكنه استثنى من ذلك نصارى الكرك والشوبك لما لهم من مكانة خاصة في نفسه . فبنوا يلبسون العمامة البيضاء اسوة بالمسلمين (148) . وفي عهد بقوق نال نصارى الكرك والشوبك حظوة لديه . فاعفاهم من الضرائب والمصادرات اكراما لموقفهم ، ومساعدتهم اياه (149) .

وكان للنصارى في بلاد الشام بطرك اليه مرجعهم في التحليل والتحريم والحكم بينهم ، واليه امر الكنائس والديارات والرهبان ومركزه دمشق (150) اما اليهود فكان لهم رئيس يتكفل بشؤونهم واقامة حدود التوراة بينهم مركزه دمشق ايضا ، اما السامرة فريثهم في نابلس (151) .

ويجدر بنا ان ننسب مع نهاية هذه الدراسة ان الازدهار الاقتصادي الذي حظيت به المدينة المندسة في العصر المملوكي ، واكبه نهضة علمية رائدة ، تمثلت في العديد من المدارس والزوايا والاربطة والخانقاهات ، فبلغت مدارس المندس تسعا واربعين مدرسة . فمد اصبح بيت المندس منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) قبلة العلماء ، فبعد سنوط بغداد وخروج العرب من الاندلس ، هاجر العديد من العلماء والفنهاء الى بيت المندس واستقروا فيه ، فابن الصيرفي يقول : (لأن بيت المندس محط رحالهم وغاية منصودهم وامالهم) (152) . وقد ترتب على ذلك ان صار المندس محط انظار طلاب العلم من جميع انحاء العالم العربي والاسلامي ، ونبع العديد من علمائه في شتى صنوف العلم والمعرفة .

-
- (148) المديري : لسلوك ، ج 1 ص 912 . ماير : الملابس المملوكية ، ص 121 .
يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الاردن ، النسم الحضاري ، ص 116 .
(149) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج 9 ص 260 .
(150) النلسندي : صبح الاعشى ، ج 4 ص 194 ، ج 12 ص 425 ، 426 .
(151) المصدر السابق ، ج 4 ص 194 ، ج 12 ص 428 .
(152) ابن الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج 3 ص 61 .

خاتمة :

كان الاهتمام بالمدينة المندسة قائما طيلة العصور الاسلامية ، وزاد هذا الاهتمام في العصر المملوكي بسبب الاخطار الخارجية التي كانت تهدد بيت المندس ، الصليبية والتتارية . فجعلوها نيابة تابعة لدمشق ، وبعد غزوة بطرس لوزينان على الاسكندرية رفع الأشرف شعبان رتبة نائبها الى طبلخاناه ، كي يتمكن من صد الاخطار التي تهددها . ولكن الظاهر برقوق استحدث في بيت المندس نيابة مستقلة سنة 796 هـ (1393 م) ، وجعل فيها اميرا كبيرا وزوده بالرجال والعتاد . كي ينفذ في وجه التتار والفرنج معا . فلما كما فعل الاشرف شعبان الذي استحدث نيابة الاسكندرية سنة 767 هـ (1365 م) ورصد فيها الدوات للوقوف في وجه الاطماع الفرنجية التي ما فتئت تهدد السواحل المصرية والشامية معا ، مستهدفة اعادتها سيطرتها على ما فندته في بلاد الشام وفي مدمته بيت المندس .

وجددت في نيابة بيت المندس معظم الوظائف التي كانت في النيابات الاخرى فوظائف ارباب السيوف كان على راسهم النائب ثم نائب التلعة والوالي . وكان يضاف الى نائب المندس نظر الحرمين الشريفين في المندس والتحليل ، وهذا تشريف وامتيار اختص به نائب المندس دون نواب بلاد الشام . ثم هناك الوظائف المدنية والدبلوماسية في قمتها شيخ الصلاحية وقاضي النضاة الشافعية .

ومثلت قوة نيابة بيت المندس بجيشها وقواتها الخاصة ، وجد هذا الجيش ، لحماية المدينة المندسة ، والمحافظة على الامن والاستقرار في النياحة وخارجها . فاشترك جيش المندس في النضاة على العديد من النائرين والمبشرين في بلاد الشام ، ولم ينفذ الأمر عند هذا الحد ، بل وجهه المالك للنضاة على اعدائهم خارج الحدود ، فاشترك في حرب ساء سوار وفي حرب العمانيين . وكان جيش المندس بكبر وبصغر حسب الظروف ، بل انه بلغ في مرات عديدة الآلاف واشترك في معظم التجاريد المتوجهة لحرب ابن عمان . وتمتعت نيابة بيت المندس بازدهار اقتصادي ، فكانت اسواق المندس زاخرة بصنوف السلع المختلفة ، وصدرت سلعها وبلغت المناطق المجاورة الى الاسواق الشامية والمصرية والاوربية برا وبحرا . كما حظيت المدينة المندسة بدخل هام من وفود الزائرين والحجاج (السياحة الداخلية) في المواسم ، حتى انهم بلغوا في بعض السنوات عشرين الف زائر . وكان للمندس علاقاته الاقتصادية الخارجية فوجد فيه وكالة للتجار الاجانب كما وجد فيه فرع لاحدى لشركات الايطالية التجارية الكبيرة .

وكان سكان بيت المندس اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود ، وكان النصارى في بعض الاحيان يشكلون نسبة اكبر في المدينة ، الا ان المسلمين في العصر المملوكي اصبحوا يمثلون نسبة 70 - 80% من السكان . وازداد سكان المندس في العصر المملوكي فبلغ مجموع سكانه 40,000 نسمة ، وهذا اعلى رقم بلغه في لعصر الاسلامي . ولكن التخلخل السكاني حدث في المندس بعد منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بسبب الطوائع والابوة التي فتكت بسكانه .

لما ليهود فكانوا قلة في العصر الاسلامي ، وانعدموا في فترة الاحتلال الصليبي ، ولكنهم نسلوا للمندس بعد ان حرره صلاح الدين . وقد لاحظنا ان عددهم لم يكن كبيرا في العصر المملوكي ، الا انهم تمتعوا بتأثير اقتصادي ونفوذ سياسي بسبب ما امتلكوه من ثروات طائلة ، وما بذلوه لاصحاب الدولة

حتى أنهم تمكنوا بسبب ما بذلوه من أموال من إعادة بناء كنيسهم في القدس . وسمو اليوم الذي أعادوا فيه بناء الكنيس (يوم الناصر) .

ان المدينة المقدسة . بنيت طيلة العصر الاسلامي متار اهتمام الخلفاء والسلاطين والملوك . وبلغ هذا الاهتمام اوجه في العصر المملوكي . فجعلوا فيها نيابة مستقلة كغيرها من المدن الهامة في بلاد الشام . وبذا اصبح في فلسطين ثلاث نيابات هي : نيابة صفد . ونيابة القدس ونيابة غزة . وفي هذا برهان ندحض به آراء بعض المستشرقين والباحثين الغربيين الذين يدعون ان القدس لم يلق الاهتمام والعناية في العصر الاسلامي . وانه كان كأحد مدن بلاد الشام العادية .